الدَّرسُ الرَّابعُ (4)

دلالة المعنى القريب والمعنى البعيد وأثرها في اختلاف المُفسِّرين

سنتناولُ هذه القضيَّةَ – على ما اعتدنا – في مسألتين اثنتين: الأولى؛ في المقصود بالمعنى القريب والمعنى البعيد ومثالٍ عليه. والأخرى في أمثلةٍ تطبيقيَّة تُبيِّنُ أثر هذه الدِّلالات في اختلاف المفسِّرين. وبيانهما كالآتي:

المسألةُ الأولى: المقصود بالمعنى القريب والمعنى البعيد ومثاله

قد يكون لِلَّفظِ مدلولانِ، أحدهما قريبٌ متبادرٌ للذِّهنِ، والآخرُ بعيدٌ، فإذا سمعْتَ متكلِّماً يتكلَّم بهذا اللَّفظِ، فإنَّ الغالبَ أن يتبادرَ إلى ذهنِكَ المعنى الظَّاهِرُ القريبُ، دون المعنى البعيدِ؛ فلو قالَ قائلٌ: اهْجُرْ فلاناً، لذهبَ الذِّهنُ إلى معنى التَّرْكِ، أي: اتركُهُ وصحبتَهُ، لأنَّ هذه الدِّلالةَ هي المعنى المتبادرُ القريبُ من الذِّهنِ في مدلولِ هذا اللَّفظِ. وقدْ لا يَخْطُرُ ببالِكَ أنَّ المرادَ هاهنا السَّبُ، وهو معنى آخرُ مُحْتَمَلٌ في دلالةِ هذا اللَّفظِ[1].

– وأقربُ شيءٍ إلى هذا، ما يُعرف في البلاغة العربيَّة بـ(التورية)؛ وهي في اصطلاحهم: «أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع: أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطن، كقوله تعالى: (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) أراد بقوله (جرحتم) معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب»[2].

ومن بديع أمثلتها عندهم: «قول سراج الدين الورّاق:

أصون أديم وجهي عن أناس * لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض * ولو وافى به لهم (حبيب)

فالتورية في لفظة (حبيب)، ولها معنيان: أحدهما المحبوب، وهذا هو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن أول وهلة بسبب التمهيد له بكلمة (بغيض)، والمعنى الثاني اسم أبي تمام الشاعر وهو: حبيب بن أوس، وهذا هو المعنى البعيد الذي أراده الشاعر ولكنه تلطف فورّى عنه وستره بالمعنى القريب»[3].

---

[1] يُنظر: الطيار، التفسير اللغوي، ص491.

[2] السيد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص301.

[3] عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص124.

– وهي في الحقيقة عكسٌ لما نحنُ بصدده؛ إذ القاعدة في التفسير اللغوي أن يُحملَ اللفظُ على المعنى القريب المتبادر دون البعيد، والشَّأنُ في (التورية) على العكس من ذلك.

وقد يُعبَّرُ عن (المعنى القريب) بـ(المعنى الأشهر)، وإن كان بعضُهم ميَّز بينهما[1]، إلاَّ أنَّا دمجنا الكلام عنهما هنا باعتبارِ تداخلهما؛ إذ المعنى الأشهر إنَّما يكتسبُ شُهرته من كونه هو القريب المتبادر إلى الذِّهن عند التكلُّم به، أو لكثرة استعماله في لسان المخاطب، وهي عناصر متداخلة يصعبُ التَّمييزُ بينها.

المسألة الثَّانية: أمثلةٌ عن أثرِ الاعتمادِ على المعنى القريب والمعنى البعيد في اختلافِ المُفَسِّرين

1– كلمتا **(بيوتكم وقبلة)** من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[يونس:87]، فقد اختلف فيها أهل التَّفسير وأهل اللُّغة على ثلاثة أقوال:

– الأوَّل؛ اجعلوا بيوتكم مساجد تصَلُّون فيها، قال الزَّجَّاجُ رحمه الله (ت:311هـ): «وقيل: (اجعلوا بيوتكم قبلة)؛ أي صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف، لأنهم آمنوا على خوف من فرعون»[2]. وقد نقل هذا المعنى السمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ) عن مجاهدٍ (ت:105هـ) ومن قبله إبراهيم النَّخَعيِّ (ت:96هـ) رحمهما الله، فقال: «وقال مجاهد: كانوا يصلون في البِيَعِ، فأمرهم أن يصلوا في البيوت. وقال إبراهيم النخْعِيُّ: كانوا خائفين، فأمرهم بالصَّلاة في بيوتهم. وكان إبراهيم النخعِيِّ خائفاً من الحجَّاج، وكان يصلي في بيته»[3].

– والثَّاني؛ اجعلوا مساجدكم قِبَلَ الكعبة، قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «وقوله ﷻ: (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً)، كَانَ فرعون قد أَمَر بتهديم المساجد، فأُمِر موسى وأخوه أن يَتَّخذ المساجد فِي جوف الدور، لتخفى من فرعون. وقوله: (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) إلى الكعبة»[4]. كما نقل هذا المعنى من المفسرين الثعلبيُّ رحمه الله (ت:427هـ). قال: «قال موسى عليه السلام لمن معه من قوم فرعون: أنْ صلُّوا إلى الكنائس الجامعة، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة للكعبة، فيصلّون فيها سرًّا. ومعنى البيوت هنا يكون المساجد. وتقدير الآية: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة»[5].

---

[1] كما فعل د. مساعد الطيار في (التفسير اللغوي).

[2] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص30.

[3] السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص128.

[4] الفراء، معاني القرآن، ج1، ص477.

[5] الثعلبيُّ، الكشف والبيان، ج5، ص144.

– والثَّالث؛ اجعلوا بيوتكم متقابلةً يُقابل بعضُها بعضًا. نقل هذا المعنى أهل التَّفسير عن سعيد بن المسيِّبِ رحمه الله (ت:94هـ). قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا [...] عن سعيد بن جبير: (واجعلوا بيوتكم قبلة)، قال: يقابل بعضها بعضًا»[1]. كما هي عند الثَّعلبيِّ رحمه الله (ت:427هـ): «قال سعيد بن جبير: معناه: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا، والقبلة الوجهة»[2].

والملاحظُ في هذه المعاني على اختلافها، أنَّه يُمكنُ حملُ الآية عليها دون تناقُضٍ؛ إلاَّ أنَّ فيها معنًى أشهرَ أقربَ إلى الذِّهن من غيره، وأغلبُ في الاستعمال، فكان حملُ الآية عليه أولى. والأقربُ من الأقوال في هذه الآية؛ الأوَّلُ: وهو أنَّ (اجعلوا بيوتكم قبلة) معناها: اتخذوا بيوتكم أماكن للصلاة، ولذلك رجَّحه ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قدمنا بيانه، وذلك أن الأغلب من معاني "البيوت" = وإن كانت المساجد بيوتًا = البيوت المسكونة، إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد. لأن "المساجد" لها اسم هي به معروفة، خاصٌّ لها، وذلك "المساجد". فأمّا "البيوت" المطلقة بغير وصلها بشيء، ولا إضافتها إلى شيء، فالبيوت المسكونة. وكذلك "القبلة" الأغلب من استعمال الناس إيّاها في قبل المساجد وللصلوات.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز توجيه معاني كلام الله إلا إلى الأغلب من وجوهها المستعمل بين أهل اللسان الذي نزل به، دون الخفيّ المجهول، ما لم تأت دلالة تدل على غير ذلك = ولم يكن على قوله: (واجعلوا بيوتكم قبلة)، دلالةٌ تقطع العذرَ بأن معناه غير الظاهر المستعمل في كلام العرب = لم يجز لنا توجيهه إلى غير الظاهر الذي وصفنا. وكذلك القول في قوله: (قِبْلَةً)»[3].

2– كلمةُ (**التَّنُّور**) من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾[هود:40]، ومعنى الآية؛

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص175.

[2] الثعلبي، الكشف والبيان، ج5، ص144.

[3] ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص175–176.

أنَّ الله ﷻ أعلم نوحاً أنْ وَقْتَ إهلاكهم فَوْرُ التَّنُّور[1]، ومعنى «فار التَّنور: يُقَال لكل شَيْء هاج وَعلا: فار، وَمِنْه: فارت الْقدر؛ إِذا ارْتَفع مَا فِيهَا وَعلا»[2]. لكن اختلف أهل التفسير في (التنُّورِ) على ثلاثة أقوالٍ:

– الأوَّلُ؛ أنَّ (التَّنُّورَ) وجه الأرض. عن ابن عباس أنه قال في قوله: (وفار التنور)، قال: التنور وجه الأرض. قال: قيل له – أي لنوحٍ عليه السلام –: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. قال: والعرب تُسَمِّي وجه الأرض: تنور الأرض[3]. قال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ): «قال عبد الله بن عباس: التنور وجه الأرض، وكانت علامة بين نوح وربه ﷻ، أي: إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض؛ فاركب أنت وأصحابك السفينة»[4].

– الثَّاني؛ أنَّ (التَّنُّور) تنوير الصبح وطلوع الفجر. فقد «رُوِيَ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: أي: وطلع الفجر. كأنه يذهب إلى تنوير الصبح»[5]. وقال السمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ): «وقال علي بن أبي طالب: وَفارَ التَّنُّورُ؛ يعني: طلوع الفجر، أي تنوّر الصبح، يعني: إذا طلع الفجر، كان وقت الهلاك»[6].

– الثَّالثُ؛ أنَّه (التَّنُّور) الذي يُخْتَبز فيه. والمعنى: إذا رأيت تنُّور أهلك يخرج منه الماءُ، فإنه علامة هلاك قومك؛ فاركب ومن معك السفينة. عن الحسن قال: كان تنُّورًا من حجارة كان لحوّاء حتى صار إلى نوح. قال: فقيل له: إذا رأيت الماء يفورُ من التنور فاركب أنتَ وأصحابك[7]. قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «وقوله ﷻ: (وَفارَ التَّنُّورُ) هو تنُّور الخابز؛ إذا فار الماء من أَحرِّ مكانٍ فِي دارك؛ فهي آية العذاب فأسر بأهْلِكَ»[8].

وهذه المعاني كلُّها لا تخرجُ عن كون فَوَرانِ التَّنُّورِ علامةً على هلاكِ قوم نُوحٍ عليه السلام. قال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ): «فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة»[9]. إلاَّ أنَّ منها معنًى قريبًا هو أشهرُ من المعاني الأخرى، وأكثرُ استعمالاً، وهو أنَّ التَّنُّور هو الموقد الَّذي يُخبَزُ عليه.

---

[1] يُنظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص51.

[2] ابن عُزيز السجستاني، غريب القرآن، ص362.

[3] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص318.

[4] النحاس، معاني القرآن، ج3، ص348.

[5] النحاس، معاني القرآن، ج3، ص348.

[6] السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص150.

[7] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص320.

[8] الفراء، معاني القرآن، ج2،ص14.

[9] النحاس، معاني القرآن، ج3، ص349.

قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: (التنور)، قول من قال: "هو التنور الذي يخبز فيه"، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجَّة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى مَا خاطبهم به»[1].

3- كلمةُ (أرجُمنَّك) من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾[مريم:46]، أُختُلِفَ فيها على قولينِ اثنينِ:

- الأوَّلُ؛ (لأرجُمنَّك) بمعنى لأسُبَّنَّك ولأشتُمنَّك؛ فيكون رجم القول والكلام. قال ابن قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ): «(لأَرْجُمَنَّكَ) أي لأَشتمنَّك»[2]. وقال الزَّجَّاج رحمه الله (ت:311هـ): «(لَأَرْجُمَنَّكَ) معناه لأشتمنَكَ، يقال: فلان يَرْمي فلاناً ويرْجُمُ فلاناً معناه يشتمه. وكذلكَ قوله ﷻ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المحْصَنَاتِ) معناه يَشْتمُونَهُنَّ»[3]. ومن المفسِّرين ابن جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ)؛ إذ يقول: «(أَرَاغِبٌ أَنْتَ) يا إبراهيم عن عبادة آلهتي؟ (لئن) أنت (لم تنته) عن ذكرها بسوء (لأرجمنك) يقول: لأرجمنك بالكلام، وذلك السبُّ، والقولُ القبيحُ»[4].

- الآخَرُ؛ (لأرجُمَنَّك) بمعنى لأرمينَّك بالحجارة، أو لأقتُلَنَّك. قال الأزهريُّ رحمه الله (ت:370هـ): «الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بالحِجارة، يُقَال: رَجَمْتُه فَهُوَ مَرْجوم أَي رَمَيْتُه، والرَّجْم: القَتْل، وَقد جاءَ فِي غير مَوْضع من كتاب الله وإِنّما قيل للْقَتْل رجم، لأَنهم كَانُوا إِذا قتلوا رجلا رَمَوْه بِالْحجارة حَتَّى يَقْتُلوه، ثمَّ قيل لكل قَتْلٍ رَجْم، وَمِنْه رجمُ الثَّيِّبَيْن إِذَا زَنَيَا»[5]. وقد نقل البغويُّ رحمه الله (ت:510هـ) من المفسِّرين هذ المعنى عن ابن عباس ﷺ (ت:68هـ) وعكرمة رحمه الله (ت:105هـ). قال: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَأَضْرِبَنَّكَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَأَقْتُلَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ»[6]. وقال

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص321.

[2] ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص274. ويُنظر: الفراء، معاني القرآن، ج2، ص169.

[3] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص332.

[4] ابن جرير، جامع البيان، ج18، ص205.

[5] الأزهري، تهذيب اللغة، ج11، ص48.

[6] البغوي، معالم التنزيل، ج5، ص234.

الثَّعالبيُّ رحمه الله (ت:875هـ): «وقال الحسَنُ: معناه: لأرجمنَّك بالحجارة. وقالتْ فرقةٌ: معناه لأَقْتُلَنَّكَ، وهذان القولان بمعنًى واحدٍ»[1].

وكلا المعنيين واردٌ وصحيحٌ، ويُمكنُ حملُ الآية عليه، إلاَّ أنَّ (الرَّجم) بمعنى الرَّمي بالحجارة أقربُ وأشهرُ وأكثرُ في الاستعمال القرآنيِّ. قال السَّمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ): «(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) يقول: إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها، لأسبنك وأشتمنك. وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غير هاهنا، فإنَّه هاهنا أراد به السبَّ والشتمَ»[2]. فحملُ الآية الآية على المعنى الأقرب الأشهر، والأكثر في الإستعمال القرآني أولى، والله أعلمُ.

4- كلمةُ (**نعجةٌ**) من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾[ص:23]، فقد اختلف فيها أهل التفسير على قولين:

- الأوَّلُ؛ (النَّعجةُ) بمعنى أنثى الضَّأن. قال الأزهريُّ رحمه الله (ت:370هـ): «قَالَ أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يزِيد: النَّعْجة عِنْد الْعَرَب: الْبَقَرَة الوحشية، وَحكم الْبَقَرَة عِنْدهم حكم الضَّائنة، وَحكم الظبية حكم الماعزة. والنعجة: الْأُنْثَى من الضَّأْن، وَجَمعهَا نِعاج»[3]. فيكون المعنى عليه: إنَّ لأخي تسعًا وتسعين من إناثِ الضَّأنِ، ولي نعجة واحدةٌ. وقد قرأ ابن مسعودٍ ﷺ (ت:32هـ): (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى) على سبيل التوكيد[4].

- الآخرُ؛ (النَّعجةُ) بمعنى المرأة والزَّوجة[5]. قال الزَّجَّاجُ رحمه الله (ت:311هـ): «كَنَّى بالنعجة عن المرأة. قال الأعشى:

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج4، ص21-22.

[2] السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص376.

[3] الأزهري، تهذيب اللغة، ج1، ص245.

[4] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج21، ص177.

[5] وقد ذكر أهل التفسير في هذا الموضع روايات فيها مساسٌ بجنابِ نبيِّ الله داوود ﷺ ينبغي الحذر منها؛ لأن أغلبها ممَّا لا يصحُّ سندًا، ولا يغترَّ طالبُ العلم بمن أوردها من أهل العلم الموثوقين؛ كابن جرير رحمه الله وغيره من أهل التفسير. قال النحاس رحمه الله: «قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود صلى الله عليه وسلم وأوريا وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده ولا ينبغي ان يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها» معاني القرآن، ج6، ص98. وقال ابن كثير رحمه الله: «قَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا قِصَّةً أَكْثَرُهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ [...] فَالْأَوْلَى أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَنْ يُرَدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا» تفسير القرآن العظيم، ج7، ص60.

فَرَمَيْتُ غُفْلَةَ عَيْنِه عن شاتِه * فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحالَها

عنى بالشاة ههنا المرأة»[1]. وقال الثَّعلبيُّ رحمه الله (ت:427هـ): «وهذا من أحسن التعريض، حتَّى كنَّى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيرا؛ تُوَرِّي عن النساء بالظباء والشاة والبقر، وهو كثير وأبْيَنُ في أشعارهم»[2]. والمعنى على ذلك: «(إِنَّ هَذَا أَخِي) أَيْ: عَلَى دِينِي وَطَرِيقَتِي، (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَة) يَعْنِي: امْرَأَةً، (وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ)؛ أَيِ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، وَالْعَرَبُ تُكَنِّي بِالنَّعْجَةِ عَنِ الْمَرْأَةِ»[3].

وحملُ الآية على المعنيين ممكنٌ؛ لأنَّ العِبرةَ حاصلةٌ على كُلِّ حال؛ وهي عدمُ الحُكمِ على الخصمِ حتَّى يُسمَعَ الطَّرفان، إلاَّ أنَّ هُناكَ معنًى أقربُ وأشهرُ في كلمة (النَّعجة)؛ وهو أنثى الضَّأن، والمعنى الآخر (المرأةُ) واردٌ ولكنَّهُ بعيد؛ لأنَّه يُتوصَّلُ إليه بالكناية والتَّعريض، وحملُ كلام الله ﷻ على القريب الأشهر أولى من النَّأيِ به إلى البعيد الأقلِّ شُهرةً من المعاني.

5- كلمةُ (**ثيابك**) من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾[المدثر:1-4]، فقدُ اختُلِف فيها على قولين:

- الأوَّلُ؛ (ثيابك) بمعنى الثِّيابِ الملبوسةِ، والمعنى: نَقِّ لباسَك من النَّجاسة. قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وقال آخرون: بل معنى ذلك: اغسلها بالماء، وطهرها من النجاسة [...] عن محمد بن سيرين (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) قال: اغسلها بالماء، [...و] قال ابن زيد، في قوله: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) قال: كان المشركون لا يتطهرون»[4]. وقد قيل كذلك: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) أي ثيابك فَقَصِّرْ؛ لأن تَقْصِيرَ الثَوبِ للرَّجُلِ أَبعدُ له مِنَ النجاسة[5].

- الآخرُ؛ (ثيابك) بمعنى نفسك، والمعنى: زَكِّ نفسك من العيوب، وصفِّ عملك من الذُّنوب. قال ابن قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ): «(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)؛ أي طهِّر نفسك من الذنوب، فكنَّى عنه بثيابه، لأنها تشتمل عليه»[6]. وقال البغويُّ رحمه الله (ت:510هـ): «(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: نَفْسَكَ فَطَهِّرْ عَنِ الذَّنْبِ

[1] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج4، ص326.
[2] الثعلبي، الكشف والبيان، ج8، ص189.
[3] البغوي، معالم التنزيل، ج7، ص80.
[4] ابن جرير، جامع البيان، ج23، ص12.
[5] يُنظر: ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص495. و: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج5، ص245.
[6] ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص495.

فَكَنَّى عَنِ النَّفْسِ بِالثَّوْبِ [...] وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي وَصْفِ الرَّجُلِ بِالصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ: إِنَّهُ طَاهِرُ الثِّيَابِ، وَتَقُولُ لِمَنْ غَدَرَ: إِنَّهُ لَدَنِسُ الثِّيَابِ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ مَعْنَاهُ: وَعَمَلَكَ فَأَصْلِحْ. قَالَ السُّدِّيُّ: يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ صَالِحًا: إِنَّهُ لَطَاهِرُ الثِّيَابِ، وَإِذَا كَانَ فَاجِرًا إِنَّهُ لَخَبِيثُ الثِّيَابُ»[1].

والمعنيان واردَانِ في الآية يُمكنُ تفسيرُها بهما دون تناقضٍ؛ ولكنَّ أحد المعنيين أقربُ من الآخر؛ وهو كون الثياب هي الملبوسة، وتطهيرها غسلُها بالماءِ، ولذلك رجَّحه ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) فقال: «عن محمد بن سيرين (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) قال: اغسلها بالماء، [...و] قال ابن زيد، في قوله: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) قال: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر، ويطهِّر ثيابه وهذا القول الذي قاله ابن سيرين وابن زيد في ذلك أظهر معانيه»[2]. أمَّا المعنى الآخرُ؛ فهو كنايةٌ، وليست الكناية دلالةً مُباشِرةً، بل فيها بُعدٌ وكُلفةٌ.

6- كلمتا (**حمالة الحطب**) من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾[المسد:4]، إذ اختلف فيها على قولين:

- الأوَّل؛ (حمالة الحطب) بمعنى التي تحملُ أغصان الشوك وتطرحها في طريق النبيِّ ﷺ. نقل هذا المعنى ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) عن ابن عباس والضحاك وابن زيد، قال: «واختلف أهل التأويل، في معنى قوله: (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) فقال بعضهم: كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، ليدخل في قدمه إذا خرج إلى الصلاة»[3]. وقال ابنُ عُزَيزٍ السِّجستانيُّ رحمه الله (ت:330هـ): «يُقَال: إِنَّهَا كَانَت موسرة، فَكَانَت لفرط بخلها تحمل الْحَطب على ظهرهَا، فنعى الله ﷻ عَلَيْهَا هَذَا الْقبْح من فعلهَا. وَيُقَال: إِنَّهَا كَانَت تقطع الشوك، فتطرحه فِي طَرِيق رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه لتؤذيهم بذلك. فالحطب معني بِهِ الشوك فِي هَذَا الْجَواب»[4].

- الآخَرُ؛ (حَمَّالةُ الحطَبِ) بمعنى الَّتي تمشي بالنَّميمة بين النَّاس. قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «وكانت تَنُمُّ بين النَّاس، فذلك حملُها الحطبَ؛ يَقُولُ: تُحرِّش بين النَّاس، وتوقد بينهم العداوة»[5]. وقال ابنُ قتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «(حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) يعني: النميمةَ. ومنه يقال: فلان يَحْطِبُ علَيَّ؛ إذا أغْرَى به»[6].

---

[1] البغوي، معالم التنزيل، ج8، ص264-265.

[2] ابن جرير، جامع البيان، ج23، ص12.

[3] ابن جرير، جامع البيان، ج24، ص678.

[4] ابن عُزَيز، غريب القرآن، ص198.

[5] الفراء، معاني القرآن، ج3، ص299.

[6] ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص542.

فمعنى حملها الحطب على ذلك: أنَّها كَانَت تمشي بالنمائم، وَحمل الْحَطب كِنَايَة عَن النمائم؛ لِأَنَّهَا توقع بَين النَّاس الشَّرّ، وتشعل بَينهم النيرَان؛ كالحطب الَّذِي تُذْكَى بِهِ النَّارُ[1]. وقد ذكر هذا المعنى من المفسرين ابن جريرٍ[2] والسمرقندي[3] والثعلبي[4] رحمهم الله وغيرهم.

ولا ريبَ أنَّ المعنى القريب المتبادر إلى الذِّهن في (حمَّالة الحطب) هو حمل أغصان الشَّوك، وإن كان معنى السَّعي بالنَّميمة واردًا كذلك، ولكنَّه بعيد يحتاج إلى شيءٍ من التَّأويل، وحملُ كلام الله ﷻ على المعنى القريب المتبادر، أولى من حمله على البعيد المتَكَلَّفِ.

[1] يُنظر: ابن عُزَيز، غريب القرآن، ص198.

[2] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج24، ص679.

[3] يُنظر: السمرقندي، بحر العلوم، جج3، ص632.

[4] يُنظر: الثعلبي، الكشف والبيان، ج10، ص326.